الباب الأول

الفصل الأول

تأسيس دولة آل عثمان

كانت دولة آل عثمان دولة المجد والفخار، دولة دأبت بغير كلل على نشر كلمة الله في كل الآفاق.

يعود تأسيس الدولة إلى السلطان عثمان بن أرطغرل، وكان أبوه أرطغرل ابن سليمان شاه قائد إحدى القبائل التركية التي نزحت إلى آسيا الصغرى.

وتقص أحداث التاريخ أن ذلك القائد كان يتجوّل يوماً فشاهد جيشين يتحاربان، وكاد لواء النصر ينعقد لأحدهما لولا أن أسرع أرطغرل إلى نجدته بعاطفة إسلامية إذ كان ذلك الجيش من السلاجقة ويقاتل البيزنطيين، فانهزم الجيش البيزنطي القوي، ولم يلبث الأمير علاء الدين سلطان قونية أن حفظ الصنيع لأرطغرل؛ إذ نجاه من هزيمة محققة وأقطعه عدة مدن وأقاليم وجعله من قواد جيوشه.

وحين أدركت أرطغرل الوفاة ورث أكبر أولاده عثمان وظيفة أبيه وذلك سنة ١٢٨٨ الميلادية ٦٨٧ الهجرية، ولم يلبث عثمان أن اتسعت أملاكه ومنح لقب (بك).

وأغار التتار على آسيا الصغرى، وفرّ علاء الدين السلجوقي في إحدى الغارات والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة في القسطنطينية، وتوفي هناك وذلك سنة ٦٩٩هـ وخلفه ابنه غياث الدين، ثم تمكن المغول من قتله، فانتهز عثمان الفرصة وسارع بإعلان نفسه سلطاناً على أملاكه، واتخذ مدينة (يكي شهر) عاصمة لسلطنته وكان ذلك في سنة ٦٩٩هـ، ١٣٠٠م، كان عثمان قائداً قوياً أراد توحيد ديار الإسلام بعد طول فرقة، فراسل أمراء الروم بآسيا الصغرى وخيّرهم بين الدخول في الإسلام أو إعطاء الجزية وهم صاغرون، فإن رفضوا فالحرب الطويلة الفاتكة!

سارع بعض الأمراء ينضوون تحت راية الإسلام، بينما مال بعضهم الآخر إلى دفع الجزية، وحشد عثمان قواته الضاربة وعقد اللواء لولده أورخان فانطلق محارباً حتى اضطر ملك القسطنطينية إلى إخلاء مدينة بورصة، فدخلها أورخان وجيشه، فأسلم حاكمها وشعبها.

وها هو أورخان قد تولى السلطنة بعد وفاة أبيه مؤسس الدولة سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، فاتخذ من مدينة بورصة عاصمة لحكمه، وبعث الجيوش وفتح أهم مدن الروم، ثم اهتم بالإصلاحات الداخلية في المملكة، وفرض الأمن وشيّد المباني، وفتح المدارس، وأجزل العطاء للعلماء والشعراء.

ولما توفي أورخان سنة ١٣٦٠م/ ٧٦١هـ تولى ولده مراد الحكم ثم سارع باحتلال مدينة أنقرة، مقر سلطان القرمان، سعى سلطان القرمان إلى مناوأة العثمانيين بتحريض الأمراء المستقلين على الدولة العثمانية، لكنه سارع في الوقت نفسه بتزويج ابنته من مراد ليأمن على باقي مملكته.

فتح مراد مدينة أدرنة سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، وسرعان ما انتقل مراد إليها لتصبح عاصمة مملكته.

حاول ملوك أوربا استرداد أدرنة لكن استطاع العثمانيون سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م الانتصار على جيوشهم على شاطئ نهر مارتيزا، وسرعان ما ألقى إليه ملوك أوربا عصا الطاعة وعقدوا المحالفات والمهادنات، ودفعوا الجزية صاغرين.

زوّج مراد ولده بايزيد بنت أمير قرمان، وحاصر العثمانيون مدينة صوفيا ثلاث سنوات إلى أن وقعت في قبضتهم سنة ١٣٨٣م/ ٧٨٥هـ، لكن السلطان مراد تُوفي حين طعنه جندي صربي بعد انتصار القوات العثمانية على القوات الصربية في سهل (قوص أوه)، وذلك في تشرين الأول ١٣٨٨م/ شعبان ٧٩١هـ.

وفي عهد بايزيد الأول الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه هاجم تيمورلنك الدولة العثمانية، ودخل مدينة سيواس بأرمينيا وأخذ ابن بايزيد واسمه

أرطغرل أسيراً، وقطع رأسه. فعَصَرَ الحزن قلب بايزيد، لكنه نشط فجيّش الجيوش وانطلق لمحاربة خان المغول الأعرج، وفي سهل أنقرة التقى الجيشان المغولي والعثماني، ونتيجة ضعف أمراء بايزيد، انهزمت القوات العثمانية ووقع بايزيد أسيراً، بينما هرب أولاده الثلاثة سليمان ومحمد وعيسى، ولم يلبث بايزيد أن لحق بالرفيق الأعلى في ١٥ شعبان ٨٠٥هـ/ آذار ١٤٠٣م.

بوفاة بايزيد سارع تيمورلنك يكافئ الأمراء جزاء انفضاضهم عن بايزيد، فرد إليهم البلغار والصرب والقلاخ.

ونشب الصراع بين الإخوة، محمد وعيسى وسليمان؛ إذ ادعى كل منهم أحقيته في العرش، بل إن سليمان ولّى نفسه سلطاناً على مدينة أدرنة، وتحالف مع ملك الروم وتنازل له عن سلانيك وسواحل البحر الأحمر في مقابل مؤازرته على أخويه.

أما محمد فسارع يقاتل جنود تيمورلنك واسترد مدينتي أماسيا وتوقات، بينما أنفرد عيسى بمدينة بورصة وأعلن نفسه خليفة لآل عثمان.

التقى الأخوان محمد وعيسى في عدة مواقع، فانهزم عيسى ولقي مصرعه، ثم فرغ محمد لملاقاة سليمان خارج أسوار أدرنة وهزمه وقتله سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م، وبذلك أصبح الخليفة الأوحد لآل عثمان، وتسمى بالغازي محمد جلبى.

لم يفرغ السلطان محمد من الحروب؛ إذ كان همه أن يستعيد ما ضاع من أملاك الدولة التي فرقها تيمولنك على الأمراء الخونة، وما كاد أن يتم له مقصده حتى فرغ لإصلاح أحوال الدولة العثمانية الداخلية، بيد أن الموت داهمه في سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م في مدينة أدرنة بعد أن أوصى بأن يلي الحكم بعده ولده مراد.

كان السلطان محمد محباً للعلوم، حازماً ليّن العريكة، جم الفضائل.

وها هو ولده مرادخان الثاني وقد وُلِّي أمر السلطنة وسنه ثماني عشرة سنة.. ويحاول ملك الروم أن يلاعب السلطان الصغير فيطلب هدنة مدى الحياة شريطة أن يسلمه مراد اثنين من إخوته ضماناً لحسن النوايا، ويرفض مراد التهديد، فيسلط ملك الروم عم السلطان وهو مصطفى بن بايزيد على ابن أخيه، ويمده بالمراكب الحربية والأموال والأجناد، ويسيّره في جيش ضخم إلى أدرنة، لكن مراداً يفلح في هزيمة العم ويقتله، ثم يعلن عزمه على غزو القسطنطينية، فيحاصرها سنة ١٤٢٢م/ ٨٢٥هـ، لكنه يعرض عنها عائداً إلى أدرنة ليسترد الولايات التي وزعها تيمورلنك على الخونة بعد أسر بايزيد، وكذلك بلاد القرمان، وسائر ما اغتصبه الأمراء من أملاك الدولة، وبعد قتال عنيف مع ملك المجر تعاهدت الدولتان على أن يكون شاطئ نهر الدانوب هو الفاصل بين أملاك الدولتين.

ثم فتح مراد مدينة سلانيك، وتزوج ابنة أمير الصرب، ثم انطلق إلى ألبانيا فدخلت في طاعته.

لكن انتقض عليه أمير الصرب، فحاصر السلطان مدينة بلغراد عاصمة الصرب ستة أشهر، ولم يفلح في فتحها فاضطر إلى مهادنة أمير الصرب وملك المجر، وعقدت محالفة مدتها عشر سنوات.

لكن فجأة غدر ملك المجر وأغار على بلاد البلغار بجيوشه، فانطلق مراد إليه على رأس جيش لجب وانتصر عليه وقتله، وهاجم معسكره وقضى على فلول جيشه سنة ١٤٤٤م/ ٨٤٨هـ.

ثم أراد مراد أن يشغل جند الإنكشارية بالحرب، فأغار بهم على بلاد اليونان وسلط على عاصمة البلاد نيران مدفعيته واقتحم المدينة بين التهليل والتكبير.

لكن سبحان من له البقاء، فقد انتقل مراد الثاني إلى رحاب ربه سنة ١٤٥١م/ ٨٥٥هـ.